المحاضرة الثالثة: النقد الانطباعيّ: مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه

كان الشعر في العصر الجاهليّ يملأ عليهم حياتهم، ويسجّل تاريخهم ومآثرهم، وله تأثيره العجيب فيهم، لذلك وصل مرتبة عالية من الجودة والإتقان والتقدير، حتّى سمي ديوان العرب، لكن النقد لم يصل إلى ما وصل إليه الشعر، فإذا تصفّحنا كتب النقد القديمة« وجدنا النقد عندهم في العصرين الجاهليّ والأمويّ ساذجا فطريّا يعتمد على الإحساس والذوق البسيط»[1]، أو بمعنى آخر كان نقدا انطباعيّا، فما المقصود بالنقد الانطباعي؟ وما خصائصه؟ وما هي مجالاته؟

1- مفهوم النقد الانطباعيّ:

1.1- الانطباع لغة:

الانطباع هو ذلك الأثر الذي يتركه المؤثّر في المتأثّر، ورد في لسان العرب:« طَبَعْتُ من الطين جَرَّةً: عَمِلْت، والطَّبّاعُ: الذي يعمَلها، والطبْعُ: الخَتْم وهو التأْثير في الطين ونحوه»[2]. والانطباع ما يدلُّ على الحالة الذهنيّة والنفسيَّة للإنسان في لحظة ما وأمام موقف معيّن.

2.1- النقد الانطباعيّ اصطلاحا:

النقد الانطباعيّ هو ذلك النقد الذاتيّ التأثّري الذي أساسه الذوق، والذي يعبّر عن بدايات تشكّل النقد في العصر الجاهليّ، ومن خصائصه أنّه يقوم على إطلاق الأحكام العامّة غير المعلّلة، ويهتمّ بالجزئيات، ويفتقر إلى التحليل والتعليل، ويبتعد عن النظرة العلميّة الموضزعيّة.

2- خصائص النقد الانطباعيّ:

1.2- الذاتيّة:

النقد الانطباعيّ نقد انفعاليّ تنطبع فيه أحاسيس ومشاعر الناقد تجاه نصّ شعريّ معيّن أو شاعر ما بعيدا عن الموضوعيّة والتقيّد بالقواعد العلميّة والمنهجيّة في النقد.

2.2- الجزئيّة:

يقوم النقد الانطباعيّ على إطلاق« الأحكام الجزئية التي تعتمد المفاضلة بين بيت وبيت أو تمييز البيت المفرد أو إرسال حكم عام في الترجيح بين شاعر وشاعر»[3]، وغيرها من الأحكام الجزئيّة التي لا تدرس النصّ ككلّ أو مجموعة من النصوص ولا تراعي التجربة الكليّة للشاعر أو لمجموعة من الشعراء.

---

1 - شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، ط: 9، القاهرة، 2004، ص:30.
2 - ابن منظور، لسان العرب، مج: 04، ج: 29، ص: 2635.
3 - إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب(نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، دار الشروق، ط: 04، عمّان، 2006، ص: 33.

3.2- إطلاق الأحكام العامّة غير المعلّلة:

وهي أحكام عامّة تحتاج إلى تحليل وتعليل وبيان، كوصفهم لقصيدة من قصائد حسّان بن ثابت في الجاهليّة بالبتّارة، ووصفهم لقصيدتين من قصائد علقمة بن عبدة بسمطي الدهر، أو كقولهم هذا أشعر بيت قالته العرب، وهذا أشعر شعراء العصر وغيرها، وقد روى ابن سلام الجمحي أنّ لبيد بن ربيعة الكوفة سئل:« من أشعر الناس؟ قال: الملك الضليل يعني امرأ القيس، قال: ثم من؟ قال: الغلام القتيل أو قال: ابن العشرين، يعني طرفة، قال: ثم من؟ قال: الشيخ أبو عقيل يعني نفسه»[1].

كما روى ابن سلام الجمحي أيضا فقال:« لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك: انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما، وتأتيني بخبرهما. قال: فلقيهما، ثم استمع، فأتى أباه فقال: جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر. فقال الأخطل: فجرير أشعرهما»[2].

3- مجالات خصائص النقد الانطباعيّ:

1.3 نقد الألفاظ:

ومن نماذج هذا النقد في العصر الجاهليّ نجدهم يطلقون أسماء على شعراء انطلاقا من لفظة وردت في أشعارهم لم تألفها أسماعهم ولم تتقبّلها أذواقهم[3]، مثل إطلاقهم لقب المُمَزّقُ على شاعر من عبد القيس شأس بن نهار لقوله:

فإن كنت مأْكولاً، فكُنْ خير آكلٍ، وإلاَّ فأدْرِكْني، ولَمّا أُمَزَّقِ

كما أطلقوا لقب المُرَقِّشُ على الشاعر عوف بن سعد من بني بكر بن وائل، وذلك لقوله:

الدارُ قَفْرُ والرُّسُوم كما رَقَّشَ، في ظَهْر الأَدِيم، قَلَمْ

كما نجدهم ينكرون بعض الألفاظ لعدم التزام الشعراء بمعانيها الحقيقيّة، مثلما أنكروا على المتلمّس قوله:

وقد أتناسَى الهمَّ عندَ احتضارِهِ بناجٍ عليهِ الصّيعريّة مكدمِ

والصيعرية: سمةٌ للناقة فجعلها للجمل، فسمعه طرفة ينشدها، فقال: استنوق الجمل. فضحك الناس وسارت مثلاً. فقال له المتلمّس: ويلٌ لرأسكَ من لسانك، فكان قتلُه بلسانه[4].

---

1 ـ ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر: 01، ص: 54.
2 ـ ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر: 02، ص: 451.
3 ـ ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 02، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط: 07، القاهرة، 1994، ص: 374 ـ 375.
4 ـ ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج: 01، ص: 183.

2.3 نقد المعاني:

وورد في مصادر النقد القديم أنّ النابغة الذبياني كان تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء؛ فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى وقد أنشده شعره وأنشدته الخنساء قولها:

قَذىً بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُوّارُ أَم ذَرَفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ

حتى انتهت إلى قولها:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به كأنّه علمٌ في رأسه نار

وإنّ صحراً لمولانا وسيّدنا وإنّ صخراً إذا نشتوا لنحّار

فقال لها: لولا أنّ أبا بصيرٍ أنشدني قبلك لقلت: إنّك أشعر الناس. فقال حسان: أنا والله أشعر منك ومنها. قال: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرّقٍ فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال: إنك لشاعر لولا أنك قلّلت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قلت "الجفنات" فقللت العدد ولو قلت "الجفان" لكان أكثر. وقلت "يلمعن في الضحى" ولو قلت "يبرقن بالدجى" لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت: "يقطرن من نجدة دماً" فدللت على قلة القتل ولو قلت "يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم. وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً منقطعاً[1] .

ومن نماذج النقد في العصر الإسلامي ما ورد عن عمر رضي الله عنه فقد أتاه الزبرقان بن بدر بالحطيئة وقال: إنّه هجاني؛ قال ما قال لك؟ قال: قال لي:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي

فقال عمر: ما أسمع هجاءً ولكنها معاتبةٌ؛ فقال الزبرقان: أو ما تبلغ مروءتي إلّا أن آكل وألبس. فقال عمر: عليّ بحسّان، فجيء به فسأله؛ فقال: لم يهجه ولكن سلح عليه، فأمر عمر بحبسه فقال الحطيئة بعد فترة من الزمن يستعطف عمر بن الخطّاب:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ زغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قاع مظلمةٍ فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فأفرج عنه عمر بعد أن اشترى منه أعراض المسلمين[2].

---

1 ـ ينظر: أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج: 09، تح: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1994، ص: 232.

2 ـ أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج: 02، ص:451.

ومن نماذج هذا النقد في العصر الأموي أنّه حينما أنشد نصيب بن رباح(108 ه) قوله:

وكدت ولم أخلق من الطير إن بدا لها بارقٌ نحو الحجاز أطير

فسمعه ابن أبي عتيق، فقال: يا ابن أم، قل غاق فإنّك تطير، يعني أنه غرابٌ أسود[1].

النقد العروضيّ:

هذا النوع من النقد يلاحظ العيوب في الأوزان والقوافي كالسناد ووالإيطاء والإكفاء أوالإقواء، هذا الأخير هو اختلاف حركة حرف الرويّ في أبيات القصيدة الواحدة، ومن الشعراء الذين وقعوا في هذا الخطأ النايغة الذبيانيّ وبشر بن أبي خازم، فقد ورد في كتاب الشعر والشعراء أنّ أبا عمرو بن العلاء قال:« فحلان من الشعراء كانا يقويان، النابغة وبشر بن أبي خازم، فأمّا النابغة فدخل يثرب فغنّى بشعره ففطن فلم يعد للإقواء وأما بشر بن أبي خازم فقال له أخوه سوادة: إنّك تقوي، قال: وما الإقواء؟ قال: قولك:

أَلَم تَرَ أَنَّ طُولَ الدَّهْرِ يُسْلِي ويُنْسِي مِثْلَ ما نُسِيَتْ جُذَامُ

ثم قلت:

وكانوا قَوْمَنَا فبَغَوْا عَلَينْا فسُقْنَاهُم إلى البَلَدِ الشَّآمِ

فلم يعد للإقواء»[2].

3.3 المفاضلة بين الشعراء:

وتعود أسباب المفاضلة بين الشعراء إلى العصبيّة القبليّة وإلى التنافس بين الشعراء والقبائل، ومن أمثلة هذا النقد ما أوردته كتب النقد القديمة عن محاكمة امرئ القيس وعلقمة بن عبدة حيث احتكما إلى امرأة امرئ القيس أم جندب، فقالت لهما: قولا شعراً تصفان فيه فرسيكما على روى واحد وقافية واحدة، فقال امرؤ القيس قصيدة مطلعها:

خَلِيلَّي مُرَّا بِي على أُمِّ جُنْدَبِ لنَقْضِيَ حاجاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وقال علقمة قصيدة مطلعها:

ذَهَبْت منَ الهجْرَانِ في كُلّ مَذْهَبِ ولم يَكُ حَقّاً كُلُّ هذا التَّجَنُّبِ

ثم أنشداها جميعاً، فقالت لامرىء القيس: علقمة أشعر منك، فقال: وكيف ذاك؟ قالت: لأنك قلت:

فللسَّوْطِ أُلْهُوبٌ ولِلساق درَّةٌ وللزَّجْرِ منه وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

فجهدت فرسك بسوطك، ومريته بساقك، وقال علقمة:

---

1 ـ أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج: 01، ص: 285.
2 ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج: 01، ص:270.

فأَدْرَكَهُنَّ ثانِياً من عِنانِهِ يَمُرُّ كمَرِّ الرائِحِ المُتَحَلِّبِ

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عنان فرسه، لم يضربه بسوط، ولا مراه بساقٍ، ولا زجره، قال: ما هو بأشعر منّي ولكنك له وامقٌ. فطلقها فخلف عليها علقمة، فسمي بذلك الفحل[1].

1 ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج: 01، ص: 218.